



Space from contemporary philosophical Questioning to a central subject in sociology

Bannouna Hamza

Université Hassan 2 de Casablanca (Maroc)

bannounahamza@gmail.com

Abstract : This paper aims to highlight the important role that contemporary philosophy and sociology have played in making the question of space a conceptual and empirical subject of reflection. Even though this duality is not actually present within the contemporary philosophical framework, we find that—starting with Georg Simmel and reaching Jean Rémy—trends in urban sociology began to make thinking about space the central subject constituting the meeting point of current research topics, whether related to urban mobility policy, migration, violence, etc. For this reason, Jean Rémy's sociology, drawing on the contributions of his predecessors—particularly Karl Marx, Henri Lefebvre, and the figures of the Chicago School—focused on re-weaving the sociology of space, taking into account that questioning it and analyzing the manifestations of its occupation cannot be separated into material and social dimensions, thereby connecting the conceptual philosophical heritage with the empirical sociological dimension. Space, especially in its connection to urbanization, is viewed through the invocation of the concept of differentiated milieu effects, whose intensity varies according to social variables such as gender and social status—which justifies the critique that Jean Rémy directed at the concept of social mixing (*mixité sociale*), in favor of privileging the contribution of urbanization to the shaping of social relations.

Kes words: space – city – social production.



المجال من المسألة الفلسفية المعاصرة إلى موضوع مركزي للسوسيولوجيا

د. حمزة بنونة

- أستاذ زائر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة الحسن الثاني – عين الشق، المغرب.

bannounahamza@gmail.com

<https://orcid.org/0009-0008-8704-6509>

ملخص: تهدف هذه الورقة إبراز الدور المهم الذي لعبته كل من الفلسفة والسوسيولوجيا المعاصرة في جعل مسألة المجال موضوعا مفاهيميا وميدانيا للتفكير. هذه الازدواجية وإن كانت لا تحضر فعليا ضمن النسق الفلسفي المعاصر؛ إلا أنه وابتداء مع "George Simmler" ووصولاً إلى "Jean Remy" سنجد بأن اتجاهات السوسيولوجيا الحضرية بدأت تجعل من التفكير في المجال الموضوع الرئيسي الذي يشكل نقطة تلاقي مواضيع البحث الراهنة سواء ما يتعلق منها ب: سياسة المدينة الحركية، الهجرة، العنف إلخ، لذلك ركز "جون ريمي" ومن خلال استثمار اجتهادات سابقه خاصة: "Karl Marx"، و "Henri Lefebvre" وأعلام مدرسة شيكاغو" على إعادة حيكة سوسيولوجيا المجال آخذا بعين الاعتبار أن مساءلته، وتحليل مظاهر شغله لا تقبل الفصل بين البعدين المادي والاجتماعي، ووصلا بين التراث الفلسفي المفاهيمي والبعده السوسيولوجي الميداني. فالمجال ولاسيما في ارتباطه بالتحضر ينظر إليه من خلال استحضار مفهوم آثار الوسط المتباينة التي تختلف شدتها باختلاف المتغيرات الاجتماعية من قبيل: الجندر والمكانة الاجتماعية، مما يبرر النقد الذي وجهه "جون ريمي" لمفهوم الاختلاط الاجتماعي، في مقابل ترجيحه مساهمة التمدن في تشكيل العلاقات الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: المجال – المدينة – الإنتاج الاجتماعي.

مقدمة:

يعتبر مفهوم المجال موضوعا مركزيا لدى مجموعة من الحقول المعرفية خاصة: الفلسفة؛ علم الاجتماع؛ الجغرافيا؛ القانون... غير أن الاشكال الأولي الذي يصادفه الباحث الأكاديمي عادة يتمثل في تقاطع التصورات الفلسفية والسوسيولوجية في مقاربتها لمفهوم espace الذي يستعمل فلسفيا كمرادف للفظ "فضاء"، وسوسيولوجيا لكلمة "مجال"؛ إذ يمكن الحديث عن الفضاء العمومي في مجموعة من الكتابات الفلسفية سواء الكلاسيكية اليونانية مع الفلسفة الأفلاطونية بشكل خاص والفلسفة السياسية المعاصرة في نماذج: "حنا أرندت"¹⁵ Hannah Arendt؛ "يورغن

15 : عملت "حنا أرندت" على التمييز بين الفضاء العام والفضاء الخاص حيث أقامت الترابط بين تراجع دور الفضاء العام وتقلص هاش حرية الأفراد، لإبراز التلازم النظري والممارساتي بين الفضاء العام والحرية، فالحياة السياسية في نظر فيلسوفة السياسة ترتبط ما هو سياسي، في حين يرتبط الفضاء الخاص بما اجتماعي، لذلك يتح الفضاء الخاص بالنسبة للأفراد نوعا من الاستقلالية والتحرر من هيمنة الفضاء العام المؤطر سياسيا.



هابرماس Jürgen Habermas¹⁶؛ "نانسي فرايزر Nancy Fraser" "...". فالارتباط اليوناني بالتفكير في المجال، سواء حيث تجليه كممارسة يومية، أو بنائه كمفهوم فلسفي، أثمر النموذج السياسي والاجتماعي المسعى آنذاك: "الدولة المدينة"، بوصفها استجابة لتقدم العالم الذهني الإغريقي. ولم تقتصر المجالات العمومية على شاكلة "الأغورا" على اليونان القديمة؛ بل كان "الفورم الروماني Roman forum" خير شاهد على تكريس المجال العمومي لأداء وظائف سوسيو-سياسية وفكرية في المرحلة الوسيطة، مثلما تميزت المرحلة الأوربية الحديثة بانتشار واسع للصالحات الثقافية التي استقطبت نخبة النخبة من الفلاسفة وعلية المجتمع البورجوازي. مثلما تعود جذور التعارض بين العام والخاص كذلك إلى ظهور المدينة اليونانية وفق ما أفادت به "حنا أرندت Hannah Arendt" نقلا عن "ورنر جايغر Werner Jaeger" بالقول: "منذ ذلك الحين أصبح كل مواطن ينتمي إلى نظامين من الوجود؛ حيث يوجد في حياته تمييز جد واضح بين ما هو خاص به (idion) وما هو مشترك (koinon)" (Chanial Philipe, 1992: 64). بطبيعة أثر هذا التقسيم منذ تلك المرحلة على مورفولوجية المجال، وشكل التواصل، فكلما كان الانتقال من المجال الخاص إلى المجال العام كلما واكب ذلك حضور بارز للتفاعل الاجتماعي والجسد السياسي، فهو انتقال من إلى العلني؛ المرئي والمشارك.

وأما في السوسولوجيا فسيتراكم التفكير في المجال منذ جيل المؤسسين – ولو بشكل ثانوي في سياق تحليل ثقافة المجتمعات التقليدية-، وهو موضوع تراكمت تساؤلاته تباعا بدأ من "إميل دوركايم Émile Durkheim" في دراسته للأشكال الأولية للحياة الدينية¹⁷، دون إغفال الأهمية التي أولاهها "برونيسلاف مالينوفسكي" لطوبونيمية المكان والروح من خلال تحليل أساطير السكان الأصليين لجزر التروبريان¹⁸، إذ لطالما مثل المجال مرجعا لصناعة المقدس الثقافي ومسرحا

¹⁶ : "يورغن هابرماس Jürgen Habermas 1929-2026"، فيلسوف ألماني، وأحد مؤسسي مدرسة فرانكفورت النقدية، ترك أثرا واضحا في النقاش الفلسفي-السياسي، خاصة فيما يتعلق بفكرة الديمقراطية التي تمثل الخيط الناظم بين كتاباته، وكان من بين أشد المنتقدين للأعمال الإجرامية للنظام النازي في حق الطائفة اليهودية، من أبرز أعماله "نظرية الفعل التواصلي 1981"، الفضاء العمومي سنة 1962، القانون والديمقراطية سنة 1962، العقل والمشروعية سنة 1973، العلم والتفكير كإيديولوجيا سنة 1968، وكانت آخر إصداراته سنة 2026 بعنوان "كان يجب القيام بما هو أفضل" في حوار مع "ستيفان مولر Stefan Müller" ورومان يوس Roman Yos.

¹⁷ : اهتم "Émile Durkheim" في دراسته للأشكال الأولية للحياة الدينية في أستراليا بتحليل الرمزية المجالية لبعض الأحجار الطوطمية مثل "تشورينغا إندارتا" لأنها كانت تمثل الدليل المادي على أن المجتمع هو الذي يصنع المقدس لذلك خصص فصولا كاملة يتطرق فيها للطوطم و "التشورينغا" و "العشيرة" عند قبائل أستراليا الوسطى. وهذه "تشورينغا" - القطعة الحجرية المقدسة- عند قبيلة "الأرندا" بوسط أستراليا، منقوش عليه رموز دائرية وخطوط تمثل أحداثا أسطورية مرتبطة بالأجداد الطوطميين. وعند قبيلة "الأرندا" كل دائرة ترمز إلى مخيم أو موضع استقرار للأجداد الأسطوريين ومساراتهم المقدسة. وحسب المعتقد فإن هذه "الضفادع السلفية" - نسبة لطوطم القبيلة الذي يمثل الضفدع- جابت هذه الأمكنة أزمنة أسطورية ما وتركت أثارها بها، حيث تحولت هذه الآثار إلى: ينابيع؛ عيون ماء؛ برك؛ أماكن مقدسة، وعليه يمثل الحجر خريطة ميتولوجية طقسية تختزن ذاكرة المكان المقدس وأفعال الأجداد. لذلك لم يكن الطوطم ليس مجرد حيوان؛ بل يعبر عن شعار المجتمع وهويته التاريخية و المجالية.

(ينظر في هذا الصدد: إميل، دوركايم. الأشكال الأولية للحياة الدينية، المنظومة الطوطمية في أستراليا. ترجمة: رنده، بعث. قطر. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. الطبعة الأولى 2019. ص. 165.)

¹⁸ : تطرق "برونيسلاف مالينوفسكي" في نهاية القسم المتعلق بالأسطورة إلى ظاهرة "بالوما" التي تشير في معناها إلى روح الميت في جزر "التروبريان"، إذ بعد الموت تقع سلسلة من الأحداث المتسقة بعضها عن بعض، فلدَى أفراد جزر التروبريان يسود اعتقادان متعارضان وموجودان جنباً إلى جنب بخصوص الروح: أحدهما يقول أن "بالوما" (التي هي الشكل الرئيسي لروح الرجل الميت) تذهب إلى "توما" (جزيرة صغيرة تقع على بعد عشرة أميال من الشمال الغربي من جزر التروبريان). وهذه الجزيرة مأهولة بأناس أحياء يسكنون في قرية كبيرة تسمى "توما" كذلك، وغالبا ما يزوره الإسكان الأصليون من الجزيرة الرئيسية. أما الاعتقاد الآخر فيؤكد أن الروح تعيش حياة قصيرة غير مستقرة بعد الموت بالقرب من القرية، وحول الأماكن المعتادة للإنسان الميت، مثل بستانه؛ شاطئ البحر؛ بئر الماء... في هذا الشكل تدعى الروح "كوسي".

(ينظر في هذا الصدد: برونيسلاف مالينوفسكي. السحر والعلم والدين ومقالات أخرى. ترجمة عمران أحمد. دمشق. منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب. 2022. صص. 440 – 441.)



للمعيش الاجتماعي. غير أن المجال كموضوع لفت للتفكير بالنسبة لعلماء الاجتماع سيبرز مع اهتمام السوسيولوجيا أكثر فأكثر بالمدينة خاصة مع " جورج زيمل George Simmel " وبعده مدرسة شيكاغو، إلى أن يغدو عنواناً مألوفاً مع كتابات كل من: " جون ريمي " مجال علماء الاجتماع، و " إيمانويل لونيل Emmanuelle Lenel " في مؤلفه: " مجال علماء الاجتماع، أبحاث معاصرة رفقة جون ريمي " .

تهدف هذه الورقة إلى اقتفاء مسار مسألة مفهوم المجال وانتقاله من دائرة التأمل الفلسفي المعاصر إلى حقل التفكير السوسيولوجي، من خلال لفت الانتباه إلى ما قدمه ثلاث مفكرين: " يورغن هابرماس "؛ " نانسي فرايزر "، و " جون ريمي "، وهم أبرز من جعلوا من المجال عنصراً مرتبطاً بالمدينة، والتنظيم السياسي، والمعيش اليومي للأفراد الذي يقوم على استراتيجيات مختلفة لتداول التملك والهيمنة، مثلما نروم في هذا السياق الكشف عن ملامح التقارب بين المقاربتين الفلسفية والسوسيولوجية عندما يتعلق الأمر ببناء سوسيولوجي لمفهوم المجال مؤكدين في ذات السياق أن التفكير في علاقة المجال بالواقع الحضري لا يستقيم مفاهيمياً بإحداث قطيعة بين التراث الفلسفي المراكم وبين مجهودات التخطيط والتدبير الاجتماعي لمعيش الإنسان.

ونظراً لأن الورقة لا تتركز على معطيات امبريقية، فإننا في هذا السياق نستند على المنهج التحليلي من خلال استقراء وتحليل التصورات، والأفكار التي ساهم في بلورتها نخبة من رواد الفلسفة السياسية، والسوسيولوجيا الحضرية، كما نستند في هذا الشأن على مقاربة تاريخية – كرونولوجية - لتتبع تطور مفهوم المجال وانتقاله بين هذين الحقلين المعرفيين، مع التركيز على المفاهيم المتجاوزة التي يستدعيها التفكير في المجال مثلما هو الأمر بالنسبة لمفهوم المدينة، والإنتاج الاجتماعي، بغيت الكشف عن تعدد دلالات المفهوم وفق تعدد مستويات التفكير فيه.

1. المجال العمومي عند يورغن هابرماس:

يعتبر " يورغن هابرماس " أهم أعلام الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت النقدية، وهو الذي عمل على بناء نظريته حول الفعل التواصلي، ونقله من مستواه المثالي المتعالي إلى بعده الواقعي العمومي في محاولة لإصلاح التعثرات النظرية التي وقع فيها الجيل الأول الممثل ب: " ماكس هوركهايمر Max Horkheimer " (1895-1973) خاصة النقد الراديكالي الموجه للعقل الأنواري، ما يعكس تعارضاً ضمنياً مع المبادئ الكانطية¹⁹ التي تأثر بها أغلب المفكرين الألمان منذ عهده؛ غير أن الاختلاف لم يمنع " هابرماس " من تبني أفكار النظرية النقدية، خاصة ما يتصل منها بمسألة المجال، ولاسيما في كتابته المبكرة مثل: التحول البنيوي للمجال العام (1962) (الأشهب. 2023. : 196) لذلك كان موضوع المجال العمومي مسألة جوهرية ليس فقط ضمن كتابات " يورغن هابرماس "، ولكن بالنسبة للمجتمعات المعاصرة على مختلف مستوياتها، وهو ما أتاح للتفكير المعاصر والراهن في مجالات الفلسفة، والحقوق، والسوسيولوجيا إثارة إشكالات راهنة ناتجة عن ملابسات الوجود الفردي

¹⁹ : ساعد سؤال " إيمانويل كانط (1724-1804) Emmanuel Kant " حول ماهية التنوير، وتمييزه بين الاستعمال الخاص والاستعمال العمومي للعقل، وهو ما ساهم في نحت المجال العمومي لدى " يورغن هابرماس "، فقد ساهم مبدأ العلنية الذي تقوم عليه الكانطية التنويرية الكانطية في انبعاث المجال العام باعتباره سلطة عليا للحكم ارتبط بدوره بمفهوم الرأي العام المتمسك بطابع الحقيقة والمتولد انطلاقاً من نقاش نقدي عمومي، بحيث يحيل المجال العام إلى الاستخدام العمومي للعقل، الذي يتوخى جعل الآراء والأفكار عامة ومشتركة بين الجميع، وعرضة للنقاش الحجاجي الحر والعلني.



والاجتماعي للإنسان ،والتمثلات حول المجال العمومي والمجال الخاص، إضافة إلى إشكالات أخرى تتقاطع مع قضايا التواصل، والمؤانسة، والهجرة إلخ.

يرتبط استعمال مفهوم " المجال العام" لدى " يورغن هابرماس" بحقل السياسة بشكل لافت لمتبعي مساره، حيث تحضر مفاهيم من قبيل : الدولة والسلطة والمجتمع المدني حضورها ضمن تعريفه الذي صاغه في كتابه: " التحول البنائي للمجال العام: دراسة في بنية المجتمع البورجوازي"، وهو تعريف يلخص وفاء " هابرماس" للإرث الفلسفي اليوناني إذ يمكن إسقاط الوظيفة السياسية والاجتماعية التي كانت تؤديها ساحة " الأغورا" على الغاية التي يتوخاها " هابرماس" من تعريفه للمجال العام بحيث يمثل مجالاً تنكشف فيه ملامح الديمقراطية: مجال يطلق العنان للعقل التواصل بديلاً للعقل الأداتي (ثابت، 2019: 411). فالمجال العام مجال للمؤانسة المستقلة عن رقابة السلطة، وهو ما تتيحه ساحات: المسارح؛ المقاهي؛ الأوبرا؛ وكل الفضاءات التي يمكن ان يحتشد فيها المواطنون للتعبير عن ذاتيتهم. لذلك عرف " زينيت Senett" لفظ العام بأنه " كان يدل على شكل حياة يمتد خارج دائرة الأسرة والأصدقاء الحميمين؛ في تنوع المجال العام، كان لزاماً أن تدخل جماعات اجتماعية معقدة في تواصل مع بعضها البعض، وكانت المدينة الكبرى تمثل الحاضنة الأساسية لهذه الحياة العامة". (Chaniel, 1992 : 65).

تكشف كتابات " يورغن هابرماس" حول المجال والتواصل، إلمامه بالفلسفات الألمانية الحديثة، والفرنسية المعاصرة، واستيعابه الرصين للعلوم الاجتماعية الألمانية والأنجلو-ساسكسونية منها: نظريات " ماكس فيبر Max Weber" و تالكوت بارسونس Talcott Parsons و " جورج هربرت ميد George Herbert Mead": استيعاب يعكسه استحضار مفاهيم من قبيل : المعيش؛ النسق، الفعل التواصل " ضمن كتاباته من سنوات الثمانينات. (الأشهب، 2023: 197).

يقصد بالعمومية في الاستعمال الهابرماسي، وكما وظفته كذلك " حنا أرندت Hannah Arendt" ذلك الاستعمال العمومي للعقل، والإعلان العمومي للحقيقة والعقل عند " هابرماس" هو العقل النقدي الذي يوظف في الفضاء العمومي باعتباره تجمعاً لجمهور يملك رأياً عاماً ذي وظيفة نقدية، أما الدعاية فتبقى من الوظائف الأساسية للدولة التي تحاول من خلالها خلق الارتباك في العقل النقدي.

إذن، يمكن القول أن الاستعمال الأول للفضاء العمومي ارتبط بالفلسفة السياسية التي اهتمت في أصلها اليوناني بممارسة الديمقراطية من خلال تخصيص ساحات عمومية للنقاش العمومي (الأكورا)، حيث يمكن من خلالها تبادل الأفكار ومناقشة القضايا السياسية والاجتماعية، من طرف المواطن الأثيني بشكل يتم فيه الاعتماد على الحجة والعقل، لكن ما قدمه " يورغن هابرماس" بخصوص الفضاء العمومي اكتسب طابع التجديد من خلال جدة المفاهيم وإعادة النظر في بنية المفاهيم التي راجت في حقل الفلسفة السياسية وخاصة في تصور " حنا أرندت" حول مفهوم " المجال العمومي" الذي صاغته أوائل الخمسينات في كتاب: " condition de l'homme moderne" وخاصة في الفصل الثاني " le domaine public et le domaine privé"، وليقدم نقده لتصور " حنا أرندت" كان لزاماً عليه الرجوع إلى الفلسفة النقدية الكانطية خاصة إلى " ما الأنوار" وإلى " صراع الكليات" لمحاولة تقديم تحديد دقيق للفضاء العمومي وتمييزه عن المجال أو الميدان



العمومي الذي قدمته " حنا أرند " فالمجال العمومي الهابرماسي يفتح على أبعاد سياسية واجتماعية، واقتصادية، وإيتيقية. (رشيد العلوي، 2022: 128).

يمثل أيضا البعد الثقافي أحد السمات المميزة للمجال العمومي، ويتعلق الأمر هنا بمجموع الإنتاجات الرمزية واللغوية والأدبية والفكرية، وهنا نجد أن " يورغن هابرماس " تتبع حركة الصالونات الأدبية، ودور البورجوازية كأفراد خصوصيين لعبوا أدوارا مهمة في الصراع بين الطبقة الثالثة وبقايا الإقطاعية، إذ من الواضح أن الطبقة البورجوازية كانت تمثل النخبة المثقفة القادرة على إنتاج الخطاب الثقافي والسياسي التحرري، وتوجيه الرأي العام ضد بقايا الإقطاع والسلط الكليانية.

ولكي لا يقع الخلط في الحديث عن العمومية أثناء استعمال الفضاء العمومي، نجد أن هابرماس ميز العمومية عن الدائرة العمومية وعن الدعاية أيضا، فالعمومية التي تشير في بعض معانيها إلى المؤسسات العمومية الخاضعة لسلطة الدولة، على اعتبار أن الدولة تمثل مجموع المؤسسات الخاضعة للتسيير البيروقراطي عن الدائرة العمومية، وتتحكم فيها قانونيا وفق التشريعات السياسية، والبرامج الفوقية لضمان وظيفتها المتمثل في استمرار الخدمة العمومية للمواطنين، وهنا تتميز العمومية عن المجال العمومي " والتي يترجمها الباحث " رشيد العلوي " أيضا ب: " الدائرة العمومية sphère public " باعتبارها هي مجال تشكل الرأي العمومي النقدي الذي يوظفه الجمهور ليصبح موضوع الفضاء العمومي هو الجمهور باعتباره حامل لرأي عمومي ذو الوظيفة النقدية أي الحامل للوظيفة النقدية (Habermas, 2006 : 10) أما الدعاية فيقدمها " يورغن هابرماس " باعتبارها الألية المميزة للدولة والقادرة على تشويه حقيقة الفضاء العمومي، وتغليط الرأي العام، عبر التحايل والكذب وتشويه الواقع، وهنا نجد التشابه بين مفهوم الدعاية " publicité " كما يقدمها " يورغن هابرماس " ومفهوم " الإيديولوجيا " Idéologie " كما يستعملها " بول ريكور Paul Ricœur " باعتبارها " العملية الفكرية التي بواسطتها تعمل التمثيلات الخيالية على تشويه حياة الناس الواقعية " والهدف من كليهما هو التحكم السياسي في الفضاء العمومي لتحقيق التطابق بين برامج السلطة السياسية الحكومية وحاجيات المطالب الشعبية، وبالتالي كبح الاحتجاجات الشعبية.

إذن، من الواضح أن المجال العمومي ساهم بشكل كبير في التطور الاقتصادي والاجتماعي، والسياسي للمجتمع الغربي ما بعد الحرب العالمية الثانية، رغم أن استعماله كما يشهد عليه التاريخ في المجتمعات العربية أسهم في تعزيز السلط المركزية أكثر مما ساهم في النهضة الثقافية والاجتماعية إلى حدود اندلاع الثورات العربية التي شكل الفضاء العمومي الافتراضي والواقعي مجالا تمكنت من خلاله الحركات الاحتجاجية من مناهضة السلطة، والانقلاب على أنظمة الحكم التي عمرت لمدة طويلة على كراسي السلطة، وتجدر الإشارة أنه عندما نتحدث عن الفضاء العمومي الهابرماسي، فنحن نتحدث عن الفضاء العمومي البورجوازي، لأنه في بداية العقد الأخير تنامي النقاش في ألمانيا حول الفضاء العمومي ومدى إمكانية استعماله في بناء وتعزيز الديمقراطية، وبذلك كان " يورغن هابرماس " وفق تعبير الباحث " رشيد العلوي " هو المؤسس الفعلي للعلاقة بين الفضاء العمومي والديموقراطية (العلوي 2022: 128)، ذلك أن الكتاب الذي قدمه في هذا المجال " الفضاء العمومي: أركيولوجية العمومية كبعد مؤسس للمجتمع البورجوازي " الذي نشره سنة 1962 وهو أطروحة



الدكتوراه الثانية التي تقدم بها سنة 1962 بجامعة Marburg بعد الأطروحة الأولى التي قدمها حول " شلنج"، وقد ذهب في تحليله للفضاء العمومي الى البحث في موضوع الأركيولوجيا الاجتماعية، والتاريخية للرأي العام كنمط من الهيمنة المؤسسية داخل المجتمعات البورجوازية الحديثة، واهتم فيه "هابرماس" بانتعاش الفضاء العمومي في أوروبا خلال القرن 18، حيث ساهمت الطبقة الثالثة الصاعدة أي الطبقة البورجوازية وحاجتها الى هذا الفضاء العمومي لتجاوز الثقافة الإقطاعية، ففي تعريفه الدقيق للفضاء العمومي يقول " هابرماس" يمكن أن نفهم الفضاء العمومي البورجوازي أولاً وقبل كل شيء باعتباره مجالاً لمجموعة من الناس الخاصين المجتمعين في شكل جمهور، وهؤلاء الناس يطالبون بهذا الفضاء المقنن والمنظم من طرف السلطة، ولكنهم يطالبون به مباشرة ضد السلطة نفسها لكي يتمكنوا من مناقشتها حول القواعد العامة للتبادل، وحول ميدان تبادل البضائع والعمل الاجتماعي، وهو ميدان يبقى خاضعاً بشكل أساسي، ولكن أهميته أصبحت ذات طابع عمومي" (Habermas, 2006 : 38) ، ويعمل " يورغن هابرماس على تجديد هذا التعريف في كتاب " الحق والديموقراطية" قائلا: " إذا كان الفضاء العمومي ظاهرة اجتماعية على المستوى نفسه من الأساسية التي للفعل الفاعل، المجموعة او الجماعة، فإنه لا يمكن تصوره كمؤسسة أو كتنظيم، كما انه ليس مبنياً كنسق وهو يقبل بعض الحدود الداخلية ولكنه يتميز إزاء الخارج بأفاق مفتوحة متحركة، لذلك يمكن وصف الفضاء العمومي بشكل أفضل كشبكة تمكن من نقل المضامين والمواقف المتخذة من ثمة الآراء (علوش، 2014: 78) " (التعريف مقتطف من كتاب : droit et démocratie entre faits et normes) الذي يقدمه هنا " يورغن هابرماس" يوضح بجلاء تداخل البعدين الاقتصادي والاجتماعي للفضاء العمومي فرغم عمومية المجال إلا أنه يمثل موقع توتر بين الأفراد بمختلف انتماءاتهم الاجتماعية والفكرية والسلطة التي تسعى جاهدة الى التحكم في استعمالات الفضاء العمومي من خلال العمل على تنظيمه وإخضاعه لبرنامج من القوانين، وكل استعمال لا يخضع للمعايير القانونية يمثل احتلالاً للفضاء العمومي ولعل المشهد الاجتماعي الذي نحاول الوقوف عليه في هذه الدراسة من خلال لفت الانتباه الى أحد أشكاله (الصراع الدائم بين تجار الشارع والسلطات العمومية يوضح بجلاء كيف يمثل الفضاء العمومي مجال الشد والجذب بين الطرفين.

تأسيساً على ما قدمه " يورغن هابرماس" ووفقاً للتغيرات التي تربط طبيعة العلاقة بين مفهوم السلطة والمجال العام، يمكن تعريف هذا الأخير إجرائياً بأنه يحيل على المجال الاجتماعي والتواصلي الذي يتيح للأفراد إنتاج روابط دافعها الأساسي نابع من هم الشأن المشترك، وهو ما يمكن من إنتاج مواقف جماعية قادرة على التأثير في النقاش العمومي سواء كانت وسائله مباشرة -تقليدية"، أو مستجدة - ديجتالية- ، ويحافظ هذا التعريف على الدور الذي أناطه " هابرماس" بالمجال العام باعتباره وسيطاً لا غنى عنه بين المجتمع المدني والدولة ، وقناة تتشكل من خلاله الاستعدادات والمواقف التي تؤثر النقاش والتداول العقلاني حول القضايا الاجتماعية والسياسية.

2. المجال العام عند " نانسي فرايزر Nancy Farser":

انطلاقاً من كتابها " qu'est-ce que la justice social ?" تعمل " نانسي فرايزر" على توجيه نقد لاذع لما قدمه " يورغن هابرماس" من تصور يكاد يكون مثالياً للمجال العام، ففي كتاب: " القانون والديموقراطية" أفرد مجموعة من الشروط التي يجب احترامها للتداول ضمن المجال العام، والتي تتمثل في: العمومية؛ العلنية؛ المحاججة؛ الشمولية وحضور الإرادة



الحرّة، إضافة إلى احترام القرارات المترتبة عن الأغلبية، (العياري، 2023: 46) ناهيك عن مثالية المجال العمومي البورجوازي في تصوره. لذلك كان ركزت "فرايزر" في نقدها على تجاوز الإقصاء الذي وقع فيه "هابرماس" لباقي المجالات العامة، فقد سعت في: "إعادة التفكير في المجال العام" إلى إعادة تأسيس نظرية نقدية جديدة للمجال العام، قائمة على مقارنة جندرية تتوافق مع مطالب حضور المرأة فيه، بعدما ساهمت عملية التميز الاجتماعي في تعزيز الهيمنة الذكورية التي وسمت المجال العام البورجوازي، فالعايير التي كانت تستند على النوع الاجتماعي لم تساهم سوى في حصر النساء داخل المجال المنزلي، وعلى إقامة الفصل والتعارض بين المجالين العام والخاص. (Fraser, 2003: 103-134) هذا النقد المزدوج لإعادة إنتاج الهيمنة الذكورية من جهة والمجال البورجوازي الهابرماسي من جهة أخرى، ساعد على مد جسور التقارب بين فلسفة "نانسي فرايزر" وسوسيولوجيا "بيير بورديو Pierre Bourdieu"، التي تحلل كيفية توظيف ممارسة و "إثوس" ethos الطبقة البورجوازية كعلامة تميز تساعد على تحديد النخب الصاعدة وإعادة إنتاجها مستقبلاً بما يضمن الحفاظ على الهوة الطبقة في المجتمع.

رغم اعتبار "يورغن هابرماس" أبرز رواد مدرسة فرانكفورت النقدية؛ إلا أن تركيزه على العام والمشارك في الفضاء العمومي مهماً كل خصوصيات الفضاء العمومي وغير مدرج إياها ضمنه، خاصة وإفراغه في كثير من الأحيان الفضاء العمومي من حمولته النقدية، وجعل الفاعلين النقيدين في الفضاء العمومي يمثلون الطبقة البورجوازية التي تجمع بينهم وحدة اللغة والانتماء إلى الأمة الألمانية، مقصياً بذلك كل المتدخلين الآخرين الذي يسعون كذلك إلى بناء الديمقراطية من خلال المجال العمومي، وغير منتبه إلى مستجدات العصر وما واكبه من انبعاث لحركات جديدة تشغل كذلك الفضاء العام، سواء تعلق الأمر بالحركات النسوية، أو الإثنيات، و الحركات المثلية، تجار الشارع، صغار الفلاحون ...

في نفس السياق واعتماداً على مجموعة من التحليلات الأسطوغرافية التي قدمها "ماري ريان Mary Rylan" و "جون لاندر Jean Lander" (العياري، 2023: 49) تضع "نانسي فرايزر نظرية" هابرماس "على محك اختبار أسسها المرتكزة عليها، حيث ارتكزت تحليلات "كل من" ماري ريان و جون لاندر "على إثبات أن الفضاء العمومي لم يرتكز تاريخياً على فعالية الطبقات البورجوازية المثقفة لإقرار الديمقراطية ذلك أن الفضاء العمومي ليس فضاء مثالياً كما تصوره "يورغن هابرماس" بل هو فضاء يطرح العديد من المفارقات ويعبر عن قوة الصراعات الاجتماعية سواء على خلفية الهيمنة الذكورية الاجتماعية أو العنصرية التي تشهدها العديد من الدول، فتاريخياً كانت مسألة النوع حاضرة بقوة، واهتمت في طرحها مجموعة من الحركات المتنامية في العالم خلال القرنين 19 و 20 حيث مثلت النساء عمادها. كما أن مسألة السود الذين ناضلوا في أمريكا كونوا بدورهم فضاء عمومياً نقياً للفضاء العمومي الرسمي عبر تصاعد نضالاتهم وحركاتهم الاحتجاجية. (العلوي، 2022: 128).

وما يجعل من الفضاء العمومي الهابرماسي حسب "نانسي فرايزر" فضاء عاماً مثالياً متخيلاً هو ارتكازه في التصور الهابرماسي على:

- اقتصاد وطني منظم ومقنن



- مواطنون متحدون حول المصلحة العامة
 - لغة وطنية تؤسس وسيطا للتواصل داخل الفضاء العمومي
 - أدب وطني يؤسس وسيط التكوين، وإعادة إنتاج توجيه ذاتي في سبيل جماعة وطنية متخيلة.
 - بنية وطنية للتواصل، وصحافة وطنية، وإعلام وطني.
- إذن فتصور "هابرماس" لفضاء العمومي حسب "نانسي فرايزر" أصبح مؤطرا بالدولة الوطنية وخدمتها من طرف جميع الفاعلين الذين يوحد بينهم العام والمشارك، فالفضاء العمومي يتعارض مع المصالح والنقاشات الخاصة، ويسعى الى توجيه الأفراد نحو الخير والمصلحة المشتركة باعتبارها غاية الغايات وفي نفس الوقت هو فضاء عمومي يمثل قوة مضادة للدولة، بحيث يسمح بتشكيل رأي عام حجاجي، يلقي بكل أشكال اللامساواة جانبا ليتم النقاش بين ذوات عاقلة نقدية متساوية. ففي الفضاء العمومي الهابرماسي كما يلاحظ تلغى الاختلافات والخصوصيات في الفضاء العمومي، وهو ما يلغي بشكل آخر وجود الأقليات، وعناصر التنوع الثقافي، واختلاف المطالب والفئات الاجتماعية التي تسعى كل من جهتها في إبراز مطالبها من خلال الفضاء العمومي، وبالفعل ففي مقال قدمته "نانسي فرايزر" بعنوان "إعادة التفكير في الفضاء العمومي" تعتبر بأن المشكلة لا تكمن فقط في أمثلة "هابرماس" للفضاء العمومي (أي جعله فضاءا عموميا)، بل إنه يفشل كذلك في تأكيد ان العلاقة بين الفضاءات العمومية هي مجال للمنافسة وليس مجالا للصراعات، (هذا الصراع يتوضح أكثر في ظل حدة التوترات التي يشهدها الفضاء العمومي تجار شارع، حركات نسائية تنسيقيات المعطلين، حركات المثليين، حركات الإثنيات...)، ورغم اتفاقها مع "هابرماس" في معيارية الفضاء العمومي وطلبها تحقق المساواة فيه، فإنها ترى عكس "هابرماس" ان الجمهور في الفضاء العمومي ليس وحيدا ولا موحدًا، لن تعددية الفضاءات العمومية هي ما يعبر عنه الواقع الاجتماعي لذلك يجب رفع الحيف عن الفضاءات العمومية الأخرى خاصة المهمشة، وعدم الاقتصار على الفضاء العمومي البورجوازي كفضاء وحيد يناهض قوة الدولة، لذلك نجد أن "نانسي فرايزر" ترى ان رفض "هابرماس" لتداول الأسئلة الخاصة وترويجها من طرف الإعلام هو رفض لا مبرر له في ظل العولمة الكونية التي نشهدها حاليا، حيث تدافع بشدة على ضرورة إدماج الأسئلة الخاصة الى الفضاءات العمومية حتى تستفيد منه الأقليات، وخصوصا النساء لطرح مطالبهن، لكن الفضاء العمومي غيب مطالب النساء بدعوى التعارض بين الدائرة العامة والخاصة، وأن النساء ومطالبهن تندرج ضمن الدائرة الخاصة.

3. "جون ريمي Jean Remy" المجال موضوعا مركزيا للسوسيولوجيا:

اهتم علم الاجتماع البلجيكي "جون ريمي 1928- 2019" بقضايا سوسيولوجية متنوعة؛ بيد أن أكثر ما استثمر فيه بحثه ينصب على المسألة الحضرية وتقاطعاتها مع قضايا المجال، والقرية، والعنف والاقتصاد، مثلما عمل على تطوير عدد مهم من المفاهيم من قبيل مفهوم "المعاملة الاجتماعية la transaction sociale"، التي استعارها من الفيلسوف والبيداغوجي الأمريكي "جون ديوي". ويمثل مفهوم المعاملة الاجتماعية ركيزة أساسية في النسق التحليلي لسوسيولوجيا الفعل لدى "جون ريمي"، فهي تعبر عن "سيرورة تتم من خلالها مواجهة بين فاعلين يتمتعون بأنماط سلوكية محددة، عبر ممارساتهم اليومية" (Remy, 2015: 167)، وتشير هذه السيرورة إلى شبكة من التبادلات



والمفاوضات والتجارب التي تجمع بين أفراد أو جماعات متفاوتة من حيث الإمكانيات والموارد ، بهدف تقريب وجهات النظر وتحقيق توافقات بين مختلف الفاعلين، لذلك يبدو جليا مدى التقارب هذه المقاربة وبين منهج التحليل الاستراتيجي .

وقد استفاد من انفتاحه على تخصصات تتقاطع مواضيعها مع السوسيولوجيا، بحكم تكوينه السابق في كل من الفلسفة والاقتصاد ، حث اهتم بدراسة المدينة من منطلق اعتبارها ظاهرة اقتصادية، مثلما اهتم بدراسة العلاقة بين المورفولوجيا المجالية والموانسة الحضرية، إلى جانب اخطائه الكبير في مجال التهيئة الترابية (9 : 2018). (Lenel).

يمثل المجال كموضوع مركزي للسوسيولوجيا خلاصة الأعمال التي قام بها: "جون ريمي" طيلة مسيرته المهنية، فالكتاب الذي قدمه يشكل توليفة متناغمة بين الإطار النظري الذي حاول فيه إرساء الأسس النظرية والمنهجية لدراسة المجال باعتباره واقعا ماديا واجتماعيا في نفس الوقت، ومن بين الإطار البيوغرافي الذي يضم أفكاره الفلسفية والسوسيولوجية حول مسألة المجال انطلاقا من مساره الأكاديمي، على اعتبار أن مساءلته للمجال لا تنفصل عن اهتماماته بعلم الاجتماع الحضري وإشكالات التهيئة الحضرية. فقد عمل "جون ريمي" على مفهومة المدينة باعتبارها كمنفعة اقتصادية لا تقبل التجزئة، وهو ما يعني أنها تخضع للتملك الجمعي وليس الفردي، لكونها تندرج ضمن المصلحة المشتركة. (9 : 2015). (Blanc).

يقدم "جون ريمي" رؤية مزدوجة في تحليله للطريقة التي يشغل بها الإنسان المجال، باعتباره منتوجا اجتماعيا، ومُنتجاً للاجتماعي، فالأفراد يصفون طابعهم الاجتماعي بالقدر الذي يعتبر فيه المجال مؤثرا اجتماعا له القدرة على ترك بصمته على المجتمع. وبذلك يتجاوز "جون ريمي" المقاربات الطبيعية التي تقدمها العلوم الطبيعية للمجال التي هيمنة عليها الجغرافيا الحضرية . مثلما يتفادى "جون ريمي" السوسيولوجية المقاربات الهندسية للمجال والتخطيط الحضرية التقني (10 : 2015). (Blanc)، لذلك نجد نوعا من التقارب على مستوى نقد المجال في بعده التقنوي بين كل من "جون ريمي" و "هنري لوفيفر"، خاصة في مسألة إعطاء الأهمية لمنطق الاستحواذ أو شغل الفضاء لفهم الفضاء، ف"هنري لوفيفر" استطاع أن يقيم التمايز بين "الفضاء المعاش" الموجه للاستعمال في سياقه المادي، و"الفضاء المتمثل" الذي يسمح لنا بتوجيه و تقيمه كما أضاف مفهوم "الفضاء المصمم" الذي يسمح بظهوره بعرضه في المستقبل وتخييل بدائل الوضعيات الحالية المعاشة، إن هذا التعبير لا يحجز الفرد في الصعوبات المرتبطة بأدواره الاجتماعية بل يتيح له إمكانية استثمار وقت الفراغ في تصور حلول بديلة للوضع القائم.

يجد الأفراد أنفسهم مجبرين على اتخاذ قرارات مشتركة تهم المدينة التي تمثل إطار عيشهم المشترك ومجالا لا يقبل إخضاعه للمصالح الفردية التي تتعارض مع ما هو جمعي (10 : 2015). (Blanc)، فدينامية التحضر ليست مقتصرة على مجال بعينه بقدر ما يهم المدينة والقرية، إذ أن الهجرة قروية المنطلق لكنها حضرية الوجهة، وهو ما يجعل القرية والمدينة عنصران متكاملان ومتعارضين يتطلبان تحليلهما في شموليتهما، وليس بمعزل أحدهما عن الآخر.

يعتبر المجال موضوعا رئيسيا للسوسيولوجيا، فهو المنظار الذي يمكن من خلاله تحليل الاجتماعي ، حيث عمل "جون ريمي" في كتابه : "المجال موضوعا مركزيا للسوسيولوجيا"، الذي أشرف فيه "موريس بلانك" Maurice Blanc على صياغة



مقدمته المتضمنة لأبرز الأفكار الواردة فيه، مثلما قام كذلك " أوليفيه كلياش Olivier Cléach " بتقديم تقرير عن الكتاب، نشر في المجلة سنة 2016 في المجلة الإلكترونية " lectures " (Cléach. 2016 : 2). ويتوزع على خمسة فصول انتقل فيها من استعراض مسارات الباحثين، حيث سيخوض غمار نقاش نظري مع: " مانويل كاستلز Manuel Castells " حول التحليل الماركسي للمجال، مثلما سيتعرض للآثار التي ينتجها الوسط وأليات إنتاج وتداول السلطة، " فالسلطة تنتقل وتفي إطار شبكة من المسارات والدوائر المتعددة؛ فهي لا تتمركز في مكان واحد أبدا.

في هذا السياق يكون جميع الأفراد دائما في وضعية تجعلهم متاحين لممارسة السلطة او الخضوع لها، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة جدا" (Remy, 2015 : 11). وأما في فصل ثان من كتاب " المجال: موضوعا مركزيا للسوسيولوجيا " فسيطرق " جون ريمي " إلى المجال باعتباره موردا للفاعلين الاجتماعيين والأفراد، وهو الفصل الذي سيحاول فيه تشرح منطقي الإنتاج والاستحواذ، إلى جانب الحدود بين العام والخاص، و من ناحية أخرى إلى المجال باعتباره لغة، لينتقل في هذا الفصل إلى معالجة أشكال التدفقات في علاقتها بالتراب (le territoire) ، لينتقل في الفصل الثالث إلى تحليل إشكالية الحركية ونمط التشكل المجالي، من خلال الانفتاح على مسألة التحضر التحولات المتعددة التي تطرأ عليه، وليختتم كتابه حول المجال بالفصل المتعلق بمحاولة لتوقع الأشكال المجالية.

إن مقارنة " جون ريمي " السوسيولوجية بنيت بالأساس بالاختلاف مع المقاربات التي تدرس الفضاء الفيزيقي المحكوم بالهندسة، والجغرافيا، والتخطيط الحضري، بحيث تقاربت مع تصور " هنري لوفيفر " خاصة في مسألة إعطاء الأهمية لمنطق الاستحواذ أو شغل الفضاء لفهم الفضاء، ف " هنري لوفيفر " استطاع أن يقيم التمايز بين "الفضاء المعاش" الموجه للاستعمال في سياقه المادي، و "الفضاء المتمثل" الذي يسمح لنا بتوجيهه و تقييمه كما أضاف مفهوم "الفضاء المصمم" الذي يسمح بظهوره بعرضه في المستقبل وبتخييل بدائل الوضعيات الحالية المعاشة، إن هذا التعبير لا يحجز الفرد في الصعوبات المرتبطة بأدواره الاجتماعية بل يتيح له إمكانية استثمار وقت الفراغ في تصور حلول بديلة للوضع القائم.

وفي مؤلف " المجال: موضوعا مركزيا للسوسيولوجيا " اقترح " جون ريمي " نسقا نظريا، حيث بادر إلى تقديم طريقة اشتغال " سوسيولوجيا المجال "، بغية التمكن من دراسة المجال العمومي الاجتماعي باعتباره واقعا ماديا، واجتماعيا في الحياة الاجتماعية (Lenel, 2018 : 11)، فالمجال حسب " جون ريمي " يمثل واقعا لا يتشكل فقط من خلال التفاعل مع فضاءات أخرى، ولكنه يتشكل أيضا من خلال العلاقات الاجتماعية، والترابطات الاجتماعية التي تأخذ مكانها او تظهر بشكل معلن في هذا الفضاء المعاش. إن هذه المقاربة تسمح بالكشف وبقراءة توترات الحياة الاجتماعية وتداخل تناقضاتها بين: الميكرو / الماكرو، الفرد / الجماعة، الماضي / الحاضر، الصراع / التلاحم...

وعلى رغم من مجموع التناقضات الاجتماعية التي تكتنف المجال الحضري، فإنه يظل في سياق مقارنة " جون ريمي " لأشكال العلاقات الاجتماعية السائدة موردا يمكن الفاعلين من التعبير والتواصل بينهم، وفي نفس الوقت يمكنهم من أخذ مساحة ومسافة من النظام المفروض اجتماعيا؛ إذ لا يمكن فهم نظام المدينة دون استحضار استراتيجيات الفاعلين الاجتماعيين على تنوعهم داخل سيروية السياق الحضري للمدينة بحيث يظل نظام المدينة محافظا على استقراره. لذلك



نجدّه يعتبر أن إعدادا مجاليا يتيح فتح حقل للفرص؛ لكن البعض فقط من سيستطيعون استغلالها، وفقا لطبيعة وأشكال الهيمنة، وممارسة السلطة في ظل تعدد الفاعلين المعيين باستغلاله وتملكه.

إن تحليل "جون ريمي" للمجال الحضري في ظل الأثر الذي أحدثته نظريات سابقه جعله يأخذ بعين الاعتبار أهمية تجاوز الأنساق النظرية المغلقة المتسمة بالتعقيد، فقد وجد الحافز في تصورات نظرية مختلفة بدرجات مختلفة من "دور الفضاء في الحياة الاجتماعية" المعبر عنه ضمن تنظيم "مدرسة شيكاغو" إلى "هنري لوفيفر" مرورا بوظيفية "تالكوت بارسونس" متجنبنا الصراعات النظرية بين التيارات السوسيولوجية الفرنسية خلال مرحلة الستينات والسبعينات، وبالنسبة لـ "جون ريمي" لا يمثل الفرد ذلك التعبير البسيط للبنية الاجتماعية كما تراه نظرية التنشئة الاجتماعية بما في ذلك نظرة "بورديو"، كما رفض أيضا الحتمية المادية والتاريخية لـ "كارل ماركس" من جهة أخرى. فإذا كانت المادية التاريخية تحتم الاسترشاد بمقولة تحكم أنماط الإنتاج وعلاقات الإنتاج بالتاريخي للمجال، بشكل تنتفي فيه إرادة الفاعلين على الاختيار، فإن مقارنة "جون ريمي" للمستوى العلائقي للمجال جعلته يعتبر أن إعدادا مجاليا يمكنه أن يفتح حقلًا للفرص، لكن البعض فقط من سيستطيعون استغلالها، وفقا لطبيعة وأشكال الهيمنة، والقوة في ظل وجود واستغلال الفاعلين المعنيين، فالمجال العمومي يمثل موردا يمكن الفاعلين من التعبير والتواصل بينهم، وفي نفس الوقت يمكنهم من أخذ مساحة ومسافة من النظام المفروض اجتماعيا. وبخصوص الفضاء العمومي الحضري فـ "جون ريمي" يرى أنه لا يمكن فهم نظام المدينة دون استحضار الفاعلين الاجتماعيين على تنوعهم داخل سيرورة السياق الحضري للمدينة بحيث يظل نظام المدينة محافظا على استقراره.

على مستوى المنهج:

لم يكن البناء الاشكالي الذي يجعل من المجال موضوعا مركزيا للبحث السوسيولوجي عملا مستقلا عن التراكم الأكاديمي الجامعي لـ "جون ريمي". فالانتباه إلى قدرة التغير الاجتماعي على إنتاج التفاعل الجدلي بين الإنسان والواقع المادي الذي يصنعه ويعيد تشكيله، تعود بداياته إلى بحث الماجستير الذي أنجزه سنة 1954 حول مخطوطات "كارل ماركس" الشاب التي استعرض فيها نموذج الديالكتيكي الذي يؤدي تواليا إلى إنتاج حرية اجتماعية من خلال تطوير السياق المادي والسيطرة عليه (Lenel, 2018: 17). هذا التأثير بالمادية الجدلية لكارل ماركس هو ما جعل "جون ريمي" يعتبر المجال أحد مميزات الواقع المادي، الذي يتيح إمكانات للفعل والممارسة بالقدر نفسه الذي ينظر إليه كتشكيل للواقع المادي، وهو اختبار ضمني لأطروحة ماركس التي ترجع كل الظواهر إلى الواقع المادي، بافتراض تمتع النفسي والاجتماعي بنوع من الاستقلالية عن الإطار المادي، هذا الافتراض الذي يسعى من خلاله جون ريمي تفادي السقوط في الحتمية المادية التي أثقل بها "كارل ماركس" عددا كبيرا من علماء الاجتماع المعاصرين. وعلى الرغم من الاستقلالية التي يتمتع بها البعدين النفسي والاجتماعي عن المجال؛ إلا أنهما ليسا منفصلين عنه بتاتا لكونه يشكل حلقة الوصل بينهما، لذلك فهو لا يعد المجال في ظل مقارنة "جون ريمي" مجرد إطار مكاني حاو للتفاعلات الاجتماعية؛ بل يمثل بناء اجتماعيا ثاويا للمعاني، وله القدرة على التأثير في سلوكيات الفاعلين.



لا يخفي "جون ريمي" أثر الترانسندنتالية الكانطية المرتبطة بقبلية مفهومي المجال والزمان، الشأن الذي جعله لا يختزل مفهوم المجال في بعد المادي الواقعي؛ بل أصبح ينظر إليه كمقولة تنظم الفكر الإنساني وتساهم في بناء إدراكه لعالمه المعاش (Lenel, 2018: 17). فمفهوم المجال لدى "جون ريمي" بقدر ما يقيم الترابط بين النفسي والاجتماعي فإنه يحاول التوفيق بين الفلسفة المثالية والمادية، وجعل الماركسية المتأخرة زمنيا عن الكانطية تعود إليها لإعادة تحليل دور المجال في تشكيل الحياة الاجتماعية والفهم الإنساني معا.

إن مقارنة "جون ريمي" السوسيولوجية قد بنيت بالأساس بالاختلاف مع المقاربات التي تدرس الفضاء الفيزيقي المحكوم بالهندسة، والجغرافيا، والتخطيط الحضري، بحيث تقاربت مع تصور: "هنري لوفيفر" خاصة في مسألة إعطاء الأهمية لمنطق الاستحواذ أو شغل الفضاء لفهم الفضاء، ف"هنري لوفيفر" استطاع أن يقيم التمايز بين "الفضاء المعاش" الموجه للاستعمال في سياقه المادي، و"الفضاء المتمثل" الذي يسمح لنا بتوجيهه و تقييمه كما أضاف مفهوم "الفضاء المصمم" الذي يسمح بظهوره بعرضه في المستقبل وبتخيل بدائل الوضعيات الحالية المعاشة، إن هذا التعبير لا يحجز الفرد في الصعوبات المرتبطة بأدواره الاجتماعية بل يتيح له إمكانية استثمار وقت الفراغ في تصور حلول بديلة للوضع القائم، وفي هذا الصدد أعاد إنتاج قراءات ملائمة لرواد السوسيولوجيا مثل "ماركس"، و "دوركايم" و "ماكس فيبر" و "جورج سيمل" إضافة إلى استثمار الدراسات الميدانية لرواد مدرسة شيكاغو، خاصة "لويس وبرث" و "روبرت بارك"، إلى جانب ثلة من الباحثين المعاصرين، حيث خلص "جون ريمي" إلى وجود علاقات غير ثابتة بين الأشكال المجالية و الترابية والاجتماعية: علاقات تتطور وتتقلب في ظل تطور التقنيات والتكنولوجيا.

وأما من الناحية الميدانية فقد عمل "جون ريمي" على إيلاء الأولوية للمعطيات الأمبريقية امتثالا للمنهج الاستقرائي، حيث اعتمد على تحصيل المعطيات الميدانية من خلال الملاحظات المعمقة لمجالات متعددة، إضافة إلى الزيارات المتكررة الطويلة الأمد للسكان العادية والمهنية التي تشغل في مجال تهيئة المجال. وتمثل هذه المعطيات المادة الخام التي أتبعها بتحليل نظري يمكن من الكشف عن معانها. غير أن التحليل النظري لم يكن هدفه إحاطة المعطيات الميدانية بإطار نظري "ماركسي" أو "بروديوي"؛ بل كان يقتضي حسب "جون ريمي" البحث في كل منظور عن الإطار النظري الملائم لتفسيره خاصة عندما يتعلق الواقع الملاحظ بالإنتاج الاجتماعي للترابية في المجال الحضري السكاني. فلإبراز تقلبات التمايز الاجتماعي وليس اختفائه عادة ما لجأ "جون ريمي" إلى الاعتماد على الملاحظات البسيطة التي يحدثها التطور التقني، فالمصعد الكهربائي المستعمل لولوج الطوابق السكنية لا يساهم في إلغاء التفاوتات الاجتماعية؛ بقدر ما يعيد تشكيلها في صيغ وصور جديدة مما يبرز تغير العلاقة بين التنظيم المجالي والترابية الاجتماعية بفعل تأثير التطورات التقنية والتكنولوجية، فالفصل بين طابق إقامة العمال العلوي وطابق إقامة الطبقة الثرية السفلي تغيرت هرميته بفعل الأثر الذي أحدثته التقنية، لتصبح الطوابق الأعلى في ظل توفر المصاعد هي المخصصة للطبقات الثرية، لما أصبحت تمنحه من إطلالة بانورامية متميزة يرافقها ذلك الشعور بالمكانة الاجتماعية المتفوقة بفعل التواجد في القمة. (Lenel, 2018: 10-11)



لقد عمل "جون ريمي" على بناء نسق نظري متكامل من الناحية المفاهيمية والإجرائية، حيث اقترح طريقة اشتغال "سوسيولوجيا الفضاء" لدراسة المجال الاجتماعي العمومي باعتباره واقعا ماديا، واجتماعيا في الحياة الاجتماعية، (Lenel, 2018:11) فالمجال حقيقة واقعية لا تتشكل فقط من خلال التفاعل مع فضاءات أخرى، ولكنها تبني أيضا من خلال العلاقات الاجتماعية، والترابطات الاجتماعية التي تأخذ مكانها أو تظهر بشكل معلن في هذا الفضاء المعاش. هذا المنظور العلانقي الذي يتبناه "جون ريمي" في مقارنته للمجال، يتيح له نسج الترابط بين مختلف التوترات التي تميز الحياة الاجتماعية وتداخل تناقضاتها بين: الميكرو/الماكرو، الفرد/الجماعة، الماضي/الحاضر، الصراع/التلاحم...

خاتمة:

يزخر مؤلف "جون ريمي" حول المجال بكم هائل من الأفكار سواء تلك التي تعيد إحياء التقاليد الفكرية التي تشبع بها في مساره الأكاديمي خاصة سواء ما تعلق منها بالتصنيف الثلاثي الذي قدمه "هنري لوفيفر" للمجال، وهو ما يعيد إلى الذهن التصنيفات السوسيولوجية والإرغونية (ergonomique) التي تهتم بالتفاعل القائم بين الإنسان ووسط عمله. مثلما لم يغفل المقاربات المعاصرة الملمة بالمجال الحضري المرتبطة منها بأعمال "ريمون لودرو"، ومنظري الإيكولوجيا الحضرية في مدرسة شيكاغو الذين حاولوا فهم كيف تحول شيكاغو في فترة صغيرة إلى مجال حضري كثيف في فترة وجيزة؛ إذ أسس رواد المدرسة في خضم الحركة الفكرية التي ميزت أعمال "روبرت بارك Robert Ezra Park" و"رودريك ماكينزي Roderick Duncan Mckenzie" و"إرنست برجس Ernest Watson Burgess" مقدمات لنظرية الثقافة الفرعية التي ساعدت على تفسير الدور الإيجابي للأنساق المحلية في تأسيس الروابط الاجتماعية وتقويتها، موجّهين في هذا السياق بمفهوم الإيكولوجيا الحضرية الذي يعرفه "روبرت بارك" بأنها تمثل حدود التجمعات الحضرية، ولها خصائص قوية ومميزة تشمل مجموعات الساكنة والمؤسسات، إنها العلم الذي يهتم بدراسة المؤسسات والأفراد وإنتاجاتهم. وتتميز المدينة وفق هذا النموذج بكونها تنظيما حضريا قائما على التنافس بين المجموعات الاجتماعية، كما تنقسم لعدة نطاقات طبيعية يتشارك الأفراد في كل منها نفس الخصائص الاجتماعية (Park, 1922: 22).

من الواضح مثلما انتبه عدد من الباحثين المهتمين باقتفاء التفكير السوسيولوجي في مسألة المجال أن مجهودات "جون ريمي" حافظت على الخلفية الفلسفية في عملية التنظير لمفهوم المجال مثلما هو عليه الحال بالنسبة للمفكرين الفرنكوفنيين (Jean-Yves Authier et al, 2016 : 3) خاصة: "Henri Lefebvre"، و"Henri Raymond"، و"Raymond Ledrut"، غير أن التجاوز الذي أحدثه "جون ريمي" يمكن من جهة في إقامة التلاقي المنهجي بين التصورين الاقتصادي والسوسيولوجي للمجال، وهو ما عكسه كتابه "المدينة بوصفها ظاهرة اقتصادية"، ومن جهة ثانية وانسجاما مع التوجه الأمبريقي لمدرسة شيكاغو، عكف "جون ريمي" على الملاءمة بين التنظير المفاهيمي واختبار أفكاره من خلال الممارسة العملية من خلال التواجد في مناصب المسؤولية لتنفيذ مشروع المدن الجديدة مع بداية القرن الود والعشرين.

ففي الألفية الأخيرة ترسخ التوجه نحو تجاوز التصورات الأحادية للمجال، حيث انسجمت رؤى الجغرافيا الأنجلوسكسونية والفرانكفونية، مع الاتجاهات السوسيولوجية المعاصرة في الاهتمام بالمجال باعتباره إنتاجا اجتماعيا،



إذ في هذا السياق ستعمل أيضا الباحثة "Martina Lôw" في كتابها "سوسيولوجيا المجال" the sociology of space على تجاوز الفكر الموضوعي للمجال، باقتراحها لفكرة المجال المشيع بالمعاني. فالمجال باعتباره "مناخا" atmosphère لا يتشكل إلا من خلال التجربة الذاتية في علاقتها بالأشياء المادية، وعلى الرغم من أن هذا "المناخ" يوجد ظاهريا خارج ذاتنا؛ إلا أنه لا ينتمي حقيقة للعالم المرئي، بل ينشأ كأثر خارجي عن الترتيب المكاني للعناصر الاجتماعية والأشخاص مثلما يتم عليه الأمر في عملية الإدراك (Lôw, 2016: 135). ووفق هذا التصور يتمتع المجال بطابعه القبلي لذلك استعملت "مارتينا لو" مفهوم "التموضع المكاني spacing" الذي يعيد توزيع العناصر المادية التي تضم الأشخاص والأشياء، ثم مفهوم "التركيب synthesis" لإضفاء البعد الاجتماعي على هذا التنظيم، مما يجعل المجال يتسم بطابعه الديناميكي بحيث يتشكل ويعاد تشكيله باستمرار من خلال استمرارية الممارسات اليومية للفاعلين فيه، وهو ما يجعل مقارنة "مارتينا لو" تمثل امتدادا للتصور الاجتماعي لـ "هنري لوفيفر" للمجال وتتكامل بدورها مع رؤية "جون ربي" حول مقولة المجال كبناء اجتماعي.

قائمة المراجع

باللغة العربية

- إميل، دوركايم. الأشكال الأولية للحياة الدينية، المنظومة الطوطمية في أستراليا. ترجمة: رندة، بعث. قطر. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. الطبعة الأولى 2019.
- برونيسلاف مالينوفسكي. السحر والعلم والدين ومقالات أخرى. ترجمة عمران أحمد. دمشق. منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب. 2022.
- بول ريكور، من النص الى الفعل، أبحاث في التأويل (الهرمينوطيقا). ترجمة: محمد برادة، و حسان بورقية. القاهرة. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. ط. 1. 2011.
- ثابت، نوار. الفضاء العام عند هابرماس. مجلة جامعة النجاح للأبحاث -ب: العلوم الإنسانية. المجلد 33. العدد 3. مارس 2019.
- ريكور، بول ، من النص الى الفعل، أبحاث في الهرمينوطيقا، طبعة سوي 1986.
- علوش، نورالدين ، تحولات الفضاء العمومي في الفلسفة السياسية المعاصرة من "هابرماس" الى "نانسي فرايز" مجلة إضافات، العددان 26-27، ربيع صيف 2014.
- العلوي، رشيد ، الفضاء العام من "هابرماس" الى "نانسي فرايزر". مؤمنون بلا حدود. الرباط
- العياري، محمد العربي. الفضاء العمومي وسؤال الحرية: جدل هابرماس وهونيث وفريزر. تبين. العدد 44. المجلد 11. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. 2023.
- فلسفة الحق عند هابرماس. تنسيق: محمد المصباحي. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. ط. 1. 2008.



باللغة الأجنبية

- Alpe Yves, Beitone Alain, et al, lexique de sociologie, éd. Dalloz, 2005.
- Chaniel Philipe, espaces publics, science sociale et démocratie. In : Quaderni, n°18, automne 1992. Les espaces publics. Pp.63-73. En ligne sur : www.persee.fr/doc/quad_0987-1381_1992_num_18_1_971.
- Emmanuel Lenel. L'espace des sociologues : recherches contemporaines avec Jean Remy. Toulouse, érès. « Sociétés urbaines et rurales - Poche », (2018).
- Emmanuelle Lenel : le matérialisme socioculturel et l'espace genèse d'une problématique . Entretien avec Jean Remy in : l'espace des sociologues, recherches contemporaines en compagnie de Jean Remy, éd. Érès 2018. <http://journals.openedition.org/lectures/20334>
- Fraser, N. (2003). 5. Repenser l'espace public : une contribution à la critique de la démocratie réellement existante. Dans E. Renault et Y. Sintomer Où en est la théorie critique ? (Pp.103-134).
- Remy, Jean. L'espace un objet central de la sociologie. France. Ed. Érès. 2015.
- Jürgen Habermas, l'espace public. Paris Payot, 2006.
- Martina Löw: the sociology of space, materiality, social structures, and action. Translated the Germany by: Donald Goodwin. Cultural sociology. Plagrave Macmillan 2016.
- Maurice Blanc, Préface in : Jean Remy. L'espace un objet central de la sociologie. France. Ed. Érès. 2015. Version PDF.
- Olivier Cléach. Jean Remy. L'espace un objet central de la sociologie. Lectures. (version en ligne). Mise en ligne le 09 mars 2016.(consulté le 18 juin 2026).
- Park. E.R. the immigrant press and its control, harper and brother's publisher, 1 st printing edition, New York. 1922.